فلسفة الجمال في فكر أبو نصر الفارابي (870-950 م)

خالد عبد الوهاب
جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي
Email : abdelwahab_khaled@yahoo.fr

الملخص :

يعد الفارابي (870-950 م) من أوائل فلاسفة الإسلام الذين أثاروا موضوع الجمال سواء كمفهوم أو فكرة، أو كممارسة فنية، وهذا ما يدعونا إلى التساؤل عما إذا كان مفهوم الجمال عند الفارابي مصدره التصور الإسلامي، أم أنه مجرد مقلد للفلسفات القديمة خاصة منها اليونانية؟ هذا ما سنحاول التعرف عليه خلال إسهامات الفارابي في هذا المجال الفلسفي باعتباره من أكثر فلاسفة الإسلام اطلاعا على الفلسفات القديمة منها خاصة اليونانية ، وكذا محاولة التعرف على الدور الاجتماعي الذي يلعبه الفن والجمال سواء من ناحية تربوية ، أو أخلاقية أو معرفية .

الكلمات المفتاحية : الفارابي ، الجمال ، الفن ، الدين ، الأخلاق ، المجتمع .

Summary :

Al-Farabi (870-950 AD) is one of the first philosopher of Islam to raise the issue of beauty as a concept or idea, or as an artistic practice. This raises the question of whether the concept of beauty in Al-Farabi originates from Islamic perception, or is merely an imitation of ancient philosophies, This is what we will try to identify through the contributions of Al-Farabi in this philosophical field as one of the most philosophers of Islam familiar with the ancient philosophies, especially the Greek one , as well as an attempt to identify the social role played by art and beauty, whether educational, moral or cognitive.

Keywords: Al-Farabi, beauty, art, religion, ethics, society.

Résumé: Al-Farabi (870-950 apr. J.-C.) est l'un des premiers philosophes de l'islam qui a soulevé la question de la beauté en tant que concept ou idée, ou en tant que pratique artistique. Cela soulève la question de savoir si le concept de beauté chez Al-Farabi provient de la perception islamique, ou s'il est un simple traducteur des philosophies anciennes? C'est ce que nous essaierons d'identifier au cours de cette recherche, à la lumière des contributions d'Al-Farabi dans ce domaine philosophique comme l'un des meilleurs connaisseurs des philosophies anciennes, en particulier le grec, ainsi qu'une tentative d'identification du rôle social joué par l'art et la beauté, qu'elle soit éducative, morale ou cognitive.

Mots-clés: Al-Farabi , beauté, art, religion, éthique, société.

مدخل :

يعد الفارابي (870-950 م) من أوائل فلاسفة الإسلام الذين أثاروا موضوع الجمال سواء كمفهوم أو فكرة ، أو كممارسة فنية ، وهذا ما يدعونا إلى التساؤل عما إذا كان مفهوم الجمال عند الفارابي مصدره التصور الإسلامي ، أم أنه مجرد تقليد للفلسفات القديمة خاصة منها اليونانية ؟

هذا ما سنحاول التعرف عليه خلال هذا الفصل ، على ضوء إسهامات الفارابي في هذا المجال الفلسفي باعتباره فيلسوفا متكلما ، مطلع غلى الفلسفات القديمة منها خاصة اليونانية ، وكذا محاولة التعرف على الدور الاجتماعي الذي يلعبه الفن كممارسة للجمال سواء من ناحية تربوية ، أو أخلاقية أو معرفية ، في هذه النظرة الجمالية في الفلسفية الإسلامية تطور في المفهوم والغاية ، يتجاوز نظرة الفلسفات القديمة التي من الجمال مجرد أفكار تتجاوز الواقع الاجتماعي خاصة منها اليونانية عدا نظرة أفلاطون إلى دور الموسيقى التربوي المتمثل في رعاية الأحداث (الشباب).

أولا : مفهوم الجمال

ينطلق الفارابي في تحديد تصوره للجمال من خلال عرض المفاهيم الدالة عليه ، والموصلة إلى إدراكه ومحاكاته .حيث يعتمد في ذلك على موازنة بين الجمال المطلق والجمال النسبي ومصدريهما .

يتدرج الفارابي في عرضه لمفهوم الجمال من خلال الانتقال من إدراك عظمة وجلالة الله إلى إدراك الجمال والبهاء، وصولا إلى كيفية حدوث اللذة والسرور والغبطة، باعتبارها إحساس وادراك للجمال عند الإنسان ، والتي تقود في النهاية إلى الفضيلة ، وهذه الغاية تدعونا إلى التساؤل : ما هو معيار الجميل عند الفارابي ؟

يحاول الفارابي في كتابه (أراء أهل المدينة الفاضلة) أن يوضح تصوره للجمال ، وكيفية حصوله كإدراك عند الإنسان ، ومصدر هذا الإدراك وفي هذا الشأن يقول : " والجمال والبهاء والزينة في كل موجود هو أن يوجد وجوده أفضل الوجود "[1]

والغرض من هذا النص ، الإشارة إلى أن الجمال عنج أي موجود سواء كان الله أو الإنسان أو الأشياء الخارجة عن الإنسان مقرون بكيفية وجوده . لكن من أين تستمد وجودها وجمالها ؟

ينطلق الفارابي من إعتبار أن كيفية الوجود الإنساني تتحدد بمحاكاته للوجود المطلق ، والجمال بدوره مرتبط بهذه الكيفية للوجود الانساني ، فهو محاكاة للجمال المطلق ، "فالأشياء بعد أن كانت في علم الله صورا عامة أي ماهيات فقط ، تتحول إلى هويات وتصبح حقائق فعلية، وهذا التحول يكون من جانب الله ".[2]

ويوضح الفارابي هذا التحول ، وصعود الذات الإنسانية أثناء إدراكها لمثال الجمال والكمال عن طريق المحاكاة من خلال قوله : "وذلك أنه كلما كنا أقرب إلى مفارقة المادة كان تصورنا له – الجوهر الأول – أتم وإنما نصير

أقرب إليه بأن نصير عقلا بالفعل ، وإذا فارقنا المادة على التمام يصير المعقول منه في أذهاننا أكمل ما يكون ".[3]

في هذه النظرة للوجود يبين فكرة المحاكاة في الجمال ، حيث يبين أولا طبيعة الجمال المطلق ، " فجماله فائت لجمال كل ذي جمال ، وكذلك زينته وبهاؤه . ثم هذه كلها له في جوهره وذاته ، وذلك في نفسه وبما يعقله من ذاته".[4]

في هذا النص إشارة إلى أن الجمال المطلق هو مصدر كل جمال في أي موجود ، بدليل كماله ، هذه الصفة المطلقة في الجمال الإلهي مصدرها يتحدد بإعتباره جمال بذاته وجوهره ، سنلاحظ لهاتين الفكرتين (المحاكاة ، الجمال بذاته وجوهره) إمتدادا في الفلسفة الإسلامية ، خاصة عند أبي حامد الغزالي الذي تناول المحاكاة بمصطلح المناسبة أو المشكلة ، وهذا ما يعكس تأثير فلسفة الفارابي الجمالية في فكر كثير من الفلاسفة المسلمين منهم الغزالي ، لكن هذا الأخير لم يأخذ فكرة المحاكاة من الفارابي كأسلوب للتعبير عن أفكاره الجمالية ، وإنما كأداة للرد على بعض المتصوفه أثناء رفضه لفكرة الاتحاد والحلول في العشق الإلهي ، وهذا ما سنعرضه في فصل لاحق . وذلك ما يجعل الجمال والكمال صفة لذات واحدة هي ذات الله ، "والجمال فيه والكمال ليسا هما فيه سوى ذات واحدة " [5]

وهكذا فتحقيق المثل – منها مثال الجمال – أصبح غلى يد الفارابي عبارة عن منح الهوية للماهيات الممكنة القائمة في العقل الإلهي ، وبعبارة إخرى إن الله الذي في علمه توجد المثل أو الصور وجودا أوليا ، وهو المؤثر في هذا العالم ، هو الموجد له وهو الخالق [6] .

صنف في هذه النظرة الجمالية للفارابي دليل على درايته بالتصور الإسلامي لمقل هذه القضايا ، والذي يجعل مصدر الجمال الإنساني هو الجمال الإلهي المجسد في عظمة مخلوقاته ، وكمال خلقه . وذلك ما يجعل

الذات الإنسانية أثناء تذوقها للجمال تعشق الجمال المطلق وتنبهر به ، وتسعى إلى محاكاته . لكن مهما كانت درجة هذا السعي والصعود ،فإن جمال الذات الإنسانية نسبي لأن " الجمال الإلهي جمال فائت لكل ذي جمال " [7]

وفي هذا المجال الفلسفي تجاوز الفارابي نظرة أفلاطون الجمالية ، رغم التأثر ببعض أفكاره الجمالية كفكرة المحاكاة ، وذلك حول كيفية صدور الأشياء عن عالم المثل ، ولعل فحوى هذا التجاوز يكمن في اعتبار أفلاطون للأشياء ظلال للمثل ، لكنه لم يوضح كيفية صدور الأشياء عن عالم المثل ، وتأثير المثل في الأشياء منها تأثير مثال الجمال في الأشياء .بينما الفارابي يعتبر جمال الأشياء مصدره الجمال المطلق ، والذات الإنسانية تميل إلى محاكاة العظمة والكمال في جمال المخلوقات .

وبعد الإشارة إلى طبيعة الجمال المطلق ، ينتقل إلى تبيان طبيعة الجمال الإنساني ، حيق يعتبره جمال ليس بذاته وجوهره بل بعرضه فهو يختلف عن الجمال المطلق بإعتباره جمال بذاته وجوهره . أي أنه إنطباع في النفس والموجودات نتيجة إدراك الجمال خارج الذات في الأشياء الخارجة وفي هذا يقول : "وأما نحن ، فإن جمالنا وزينتنا وبهاؤنا هي لنا باعراضنا ، لا بذاتنا ، وللاشياء الخارجة عنا ، لا في جوهرنا "[8].

ويصطلح الفارابي عي ذلك الإنطباع الذاتي لإدراك الجمال باللذة والسرور والغبطة ، حيث يقول :"واللذة والسرور والغبطة ، إنما ينتج ويحصل أكثر بأن يدرك الأجمل والأبهى والأزين بالإدراك الاتقن والأتم " [9] ، لكن هل هذا الإدراك الجمالي الأتم والأتقن ممكن ؟ وكيف يتم هذا التصور الجمالي ؟

يجيب الفارابي بقوله : " وذلك أنا كلما كنا أقرب إلى مفارقة المادة كان تصورنا له أتم ، وإنما نصير أقرب إليه بأن نصير عقلا بالفعل ، وإذا فارقنا المادة على التمام يصير المعقول منه في أذهاننا أكمل ما يكون"[10]

في هذا النص إشارة إلى ذلك الجدل الصاعد للنفس أثناء محاكاتها للكمال ي الجمال المطلق ، حيث يبني فكرة المحاكاة على أساس الموازنة بين طبيعة الجمال المطلق ، وطبيعة الجمال عند الانسان ، ثم العلاقة القائمة بينهما أثناء محاولة إدراك الذات الانسانية للكمال في الجمال المطلق ، مجال للتقارب بين الفارابي وأفلاطون ، هذا الأخير الذي يعتبر أن الموجودات جميلة من جهة الصورة أو المثال، وغير جميلة من جهة الصورة أو المثال ، وغير جميلة من جهة المادة، وهي أقل جمالا بمقدار ما تختفي الصورة في ركام المادة ، وتبدو أكثر جمالا بمقدار ما تتبرأ من مادتها ، وتتخلص منها بإتجاه صورتها .

ففي هذه النظرة – المحاكاة – للجمال عند الفارابي دليل على تأثره بفلسفة الجمال عند أفلاطون ، باعتبار هذا الأخير مؤسس نظرية المحاكاة في الفن ، حيث يرى " أن القيمة الجمالية إنما ترجع في أصلها إلى العالم المثالي المعقول ، وكأن النفس هي التي تطلبها حينما تصعد في سلم التطهير لكي تصل إلى المثل"[11]

أي أن إدراك الجمال وممارسته كفن هو محاكاة للطبيعة ، وجمال الطبيعة هو محاكاة للمثال ، فكذلك إدراك الجمال عند الفارابي هو محاكاة الذات لجمال الأشياء الخارجة – المخلوقات – وجمال هذه الأخيرة هو محاكاة للكمال في الجمال المطلق .

لكن هذا التأثر هو تقليد لمظرة أفلاطون الجمالية في شكلها من خلال أسلوب وصيغة المحاكاة في صعود النفس الإنسانية نحو الجمال المطلق أثناء إدراكها لمثال الجمال ، بينما من حيث المضمون نلاحظ بناء الفارابي للمحاكاة على أساس التصور الإسلامي لمثل هذه القضايا، وهذه لتشبعه بالثقافة الإسلامية، حيث يبين ما يهدف إليه هذا الإدراك الجمالي هن طريق المحاكاة من متعة والايمان بوحدانيته ، وابتغاء الفضيلة من وراء ذلك وفي

هذا الشأن يقول: فإن المعشوق منا هو الفضيلة والجمال، وليس العاشق منا هو الجمال والفضيلة "[12]

ومنه يرى الفارابي أن السعادة تتحقق من خلال فعل الجميل، أي أن اللغة الجمالية التي تصاحب إدراكنا للجمال الغني هي التي تحقق السعادة [13].

ومنه فإدراك الفضيلة، وتحصيل السعادة في نظر الفارابي يكمن في الجمال الفني الذي يهدف إدراكه إلى المتعة والمعرفة في أن واحد، والمتعة التي تحصل من المعرفة هي أفضل وأجمل متعة ، لكونها تثمر فائدة ومنفعة عند مدركها في الممارسات الفنية خاصة ، ففي هذا المجال نلاحظ إرتباط القيمة الجمالية بالمنفعة، لكن ليست المنفعة لذاتها ، بل المنفعة التي تثمر العمل الفني الجميل الجاد والهادف .

وبذلك يصبح في نظر الفارابي النافع هو الأجمل ، حيث يقول: "فلا فرق بين أن يقال أنفع في غاية فاضلة، وبين أن يقال أنفع وأجمل، فإن الأنفع والأجمل هو بالضرورة هو لغاية فاضلة، والأنفع في غاية ما فاضلة هو الأجمل في تلك الغاية"[14] وبذلك يصير الجميل هو الذي يستقطب الإنسان إلى العمل الجاد الذي يعود إليه بالنفع والفائدة والسعادة .

وما يميز نظرة الفارابي الجمالية المطعمة بثقافته الإسلامية، عن نظرة الفلاسفة اليونان خاصة أفلاطون، وأرسطو، هو تقريره أن معيار والمعتقدات، ويقول في هذا الشأن، "ثم ظاهر أن كل ما هو أنفع وأجمل، فإما أن يكون أجمل في المشهور، أو أجمل في ملة أو أجمل في الحقيقة" [15]. كما يضاف لهذا التميز ، ربطه للقيمة الجمالية بالقيمة الأخلاقية المستمدة من الدين ، من خلال ربط الجمال بالفضيلة والخير، حيث يقول: "وليس يمكن أن يستنبط الأجمل عن أهل ملة ما إلا الذي فضائله الخلقية فضائل في تلك الملة خاصة ، وكذلك من سواه"[16]

هذه هي الدوافع التي جعلت الفارابي من جملة الفلاسفة المسلمين، يقف موقف المدافع عن الفنون الجادة التي تخدم الفرد والمجتمع، واعتبار الغاية من المحاكاة في الفن ليست المتعة واللهو، بل الغاية منها بلوغ أمور الجد، كتعليم العامة من الناس غير القادرين على إدراك الحقائق كما هي في الوجود .

وهذا ما سنلاحظه قي نظرته إلى فني الشعر والموسيقى ودورهما المعرفي والاجتماعي، حيث سنجد لهذا التصور الجمالي للفنون عند الفارابي إمتداد في الفلسفة الإسلامية عند كثير من فلاسفة الإسلام خاصة منهم الغزالي في معرض حديثه عن السماع الصوفي.

ولذا سنركز في المبحث الموالي على جماليات الموسيقى، بهدف معرفة دور المحاكاة في الفن، وما تحققه من متعة أو إنطباع في النفس يجعل من الأفكار والمعاني تقع في النفس أفضل وأجمل موقع، حيث تصبح هذه الفنون من وسائل إستقطاب العامة إلى العلم والمعرفة .

ثانيا : الجمال والموسيقى

لقد اختلفت مباحث المفكرين المسلمين خول موضوع الموسيقى، فمنهم من بحث الجانب الفلسفي فيها، وكيفية نشوئها وعلاقتها بحركة الأفلاك ودوران الأرض،وتأثيرها على الانسان والموجودات الأخرى، وأسباب صناعة الألات الموسيقية، ومنهم من توجه في بحثه إلى الجانب العلمي البحث في الموسيقى ودراسة أسس الرياضيات المنظمة للسلالم الموسيقية.

ومنهم أيضا من إهتم بالنص الغنائي وعلاقة الموسيقى باللغة والأدب، وحاول رسم العلاقة بين الإيقاع والوزن الشعري في الغناء، بينما البعض الأخر منهم من تألق في تأمل جمال الموسيقى، ومراقبة فنونها في الضرب والغناء، ومدى تأثيرها على النفوس، وإثارتها للعواطف البشرية وتنظيمها للذوق والإدراك .

ولعل هذا ما دفع بمؤرخي هذا الفن إلى تصنيف الفلاسفة المسلمين على ضوء وجهة نظرهم للموسيقى إلى مدرستين [17].

المدرسة الروحية (الأفلاطونية) :

وهي المدرسة التي تربط الموسيقى ومقاماتها بأحوال النفس وطبائع الشخصية وبالأفلاك وأبراجها التي تتحكم في قدر الإنسان وتحدد شخصيته، ومن المعبرين عن هذه المدرسة الكندي وإخوان الصفا .

المدرسة الوضعية(الأرسطية):

وهي التي ترى أن جوهر الموسيقى ليس إلا النسب الرياضية، وإنسجام الأصوات وتنوعها بين الحدة والرخامة، ومن ممثلي هذه المدرسة الفارابي وإبن سينا.

ومن بين هؤلاء الفلاسفة المسلمين، يعد الفارابي أهم من كتب في الموسيقى العربية من الناحية النظرية، ودليل ذلك ما ألفه في هذا المجال منه على الأخص "كتاب الموسيقى الكبير"، ويتضمن هذا المؤلف ثلاثة كتب يتقدمها مدخل يعالج فيه الموسيقى بشكل عام (تعريف اللحن ، الموسيقى النظرية والعملية، أحكام الذوق، وأحكام العقل ...) وفي الكتاب الأول يعالج عناصر التأليف الموسيقي (المبادئ الفيزيائية لإنتاج الصوت ، تعريف النغم، حول الحدة والرخامة ، القواعد الحسابية ...)، وفي الكتاب الثاني وصف للآلات الموسيقية في عصره، وخصائصها أما في الكتاب الثالث عرض للتأليف الموسيقي(الإيقاعات العامة والعربية ، ونغمات الأساس في اللحن ...).

هذا ما جعل الفارابي يعتبر إلى جانب كونه فيلسوفا ورياضيا، موسيقيا معروفا في عصره، لكن ما يهمنا في هذا المجال هوالبحث فيما كتبه عن الموسيقى من وجهة نظر علم الجمال، وهو مالم يتعرض له باقي فلاسفة الإسلام بشكل مباشر.

وذلك ما يقودنا إلى إبراز هذا الجانب الفلسفي، لكي ندرك ملامح الجمال الموسيقى في الفلسفة الإسلامية. وما يعنينا هنا خاصة هي المسائل الخاصة بعلم الجمال كعملية الإبداع الفني، وعملية التذوق، خصائص العمل الموسيقى الجميل فنيا، وما هي معاييره الجمالية ؟

إن ما كتبه الفارابي عن الموسيقى من وجهة نظر علم الجمال، تقودنا إلى معرفة ملامح جمال الموسيقى، وخصائصه الفنية، والتمييز بين الجاد المباح، والهزيل المكروه من هذا الفن.

ولإدراك هذه الحقيقة، ينبغي تقصي الدوافع التي جعلته يبدع هذه الأفكار الجمالية، المعبرة عن الموقف الإسلامي أنذاك من الموسيقى كعلم، أوالموسيقى النظرية على حد تعبيره.

لعل الدافع الأساسي تشخصه ظاهرة التفاهم التي طغت على الفن الموسيقى في عصره، فحللها بحثا عن أسبابها المباشرة والتي يرجعها إلى وظيفة الموسيقى والشعر، وذلك لما بينهما من ارتباط وثيق، وهذا يقول:"فالألحان إذا أنما تقرن أكثر ذلك بالأقاويل، التي ينحى بها نحو هذه الأشياء، وهي المخصوصة عندنا بإسم الأقاويل الشعرية، وإن كان كثير من الناس يسمي بهذا الإسم جميع الأقاويل الموزونة "[18]

فهذا الإرتباط بين الألحان والأشعار دليل على أنه لم تكن للعرب آنذاك موسيقى خالصة، أي ألحان بآلات دون كلمات، بل كانت لهم ألفاظ وعبارات موزونة بأوزان شعرية تلحن بألحان وأنغام متعددة الأشكال، وسوف نعرض كيفية تحديد قيمة هذه الألحان الجمالية، وهل تتحدد بقيمة النص الشعري المرتبطة به؟

لكن قبل معرفة ذلك تجدر الإشارة إلى بعض المفاهيم الجمالية التي يؤسس على غرارها الفارابي جماليات الموسيقى، كمفهوم الموسيقى، وعملية

الإبداع الموسيقى وأصولها، وتصنيف الألحان، وتأثيرها في النفوس، وتأثير الجمهور على الموسيقى .

1 - مفهوم الموسيقى :

يعرف الفارابي الموسيقى بقوله :" كلمة الموسيقى تعني الألحان" [19] واللحن عنده عبارة عن تتابع عدة من النغمات قي زمن محدد كالجملة مركبة من ألفاظ، والموسيقى هي العلم الذي يهتم بالألحان، وتنقسم إلى موسيقى عملية وموسيقى نظرية فالموسيقى العملية هي التي تهتم بوضع اللحن وتنفيذه، أما الموسيقى النظرية فهي التي تهتم بشروط ومبادئ فن الموسيقى بالاضافة إلى عنصر ثالث هام وهو التذوق الذي يتم بواسطة تدخل حاسة السمع التي تسمح بالتمييز بين " الألحان المتفاضلة في الجودة والرداءة، والمتلائمات من غير المتلائمات (...) وقلما يعدم إنسان هذا بالفطرة أو بالعادة " [20]،هذا ما يجعل الفارابي يقصد الموسيقى النظرية، الموسيقى كعلم لا كفن، لأنه يعتبرها جهدا عقليا خالصا،غايته تعلم هذا الفن من خلال إدراك علته وأحواله ونتائجه .

وبذلك فالفن بصورة عامة عنده " يقتضي أن يكون وراءه تدبير عقلي مسبق، ولذا فهو قاصر على الإنسان الذي ينتج الفن طبقا لتخيل في النفس وقد يكون هذا التخيل زائفا أو حقيقيا،والتخيل الحقيقي هو الذي يسمح للعمل الفني أن يتحول من خواطر في نفس الفنان إلى عمل فني محسوس"[21].

ويتضح من خلال مفهوم الموسيقى النظرية، أن الموسيقى الجميلة لدى الفارابي هي التي تصل إلى ترجمة الحالة النفسية للفنان، وتستطيع أن تضع المستمع في نفس الحال، وليس هناك أفضل من الصوت الإنساني في التعبير عن الحالة النفسية للفنان، وهذا ما ينتج الصراع بين الموسيقى والغناء، أو

بين التعبير الصوتي الخالص، والتعبير اللغوي، حيث يفضل الفارابي الموسيقى الصوتية الغنائية على الموسيقى الخالصة.

2 - الإبداع الموسيقى :

يعتبر الفارابي الموسيقى كفن مرتبطة غريزيا بوجود الإنسان، ويؤكد ذلك بالدوافع التي تدفع الإنسان لانتاج الموسيقى وهي ثلاث:

أولا: الغزيرة الشعرية، ورغبة الإنسان في النظم والتناسق في أقاويله.

ثانيا: ميل الإنسان لإصدار أصوات عندما يكون في حالة فرح أوألم .

ثالثا: الرغبة في الراحة بعد العمل ومحاولة نسيان التعب أثناء العمل، لأن التعب ينتج عن الحركة، والحركة مرتبطة بالزمن، والموسيقى تساعد على نسان الشعور بالزمن، وبالتالي نسيان الشعور بالتعب.

وما دامت الموسيقى مرتبطة بوجود الانسان، فإن هذا الأخير عرف التناغي والغناء والإيقاع، ومع مرور الزمن وتعاقب الأجيال تنوعت أشكال الإنتاج الموسيقي، هذا ما جعل الفارابي يعتبر "أن هناك صفات قومية تميز موسيقى الشعوب بعضها عن بعض، ولكنه يعتبر من أنواع الموسيقى المناسبة للأذن العربية موسيقى شعوب اليونان والرومان، وأنواع موسيقى الشعوب الأخرى تمثل نشازا للأذن العربية "[22]

تبني العرب للسلم الفيثاغوري كأساس لألحانهم، الأمر الذي دفع الفارابي أن يضيف وترا خامسا على العود حتى يتمكن من تنفيذ كل الإمكانيات الموسيقية للسلم الفيثاغوري[23]

هذا ما جعل الفارابي يتميز عن باقي فلاسفة الإسلام بنظرته للموسيقى، حيث يبدأ صياغة نظريته الجمالية من الموسيقى إنطلاقا من الموسيقى العربية نفسها، حيث يجعل للابداع الموسيقي ثلاث درجات، فالأولى تتمثل في إمكانية الموسيقار أن يضع لحنا أو يخرجه دون الحاجة إلى صوت حسي خارجي، والثانية لا يحتاج الفنان إلى صوت محسوس، بل يشكل اللحن داخل

نفسه، لكن يكون عاجزا عن تعقل وإدراك ما أبدع، والثالثة تكمن في قوة ملكة الإدراك عند الفنان، والتي تمكنه من الحكم على كل ما أبدعه خياله، وهي درجه الاتقان حيث يجمع الفنان فيها بين الموسيقى العملية والموسيقى النظرية، وهذا ما جعله يعتبر "الموسيقى في نظر الفنان، ليست فنا فقط، بل علما أيضا، لأن العلم يتضمن معرفة العلة"[24]

3 - تصنيف الألحان:

يصنف الفارابي الألحان من حيث تأثيرها على النفس إلى ثلاثة أصناف هي:

الأول: يثير في النفس إحساسا باللذة والراحة.

الثاني: يعبر عن حالة النفس الانفعالية المختلفة .

الثالث: يستطيع أن يعبر عن أفكار تخاطب خيالنا، وهو الأكثر إتقانا لأنه يؤثر في النفس أكثر من تأثير الضصيدة الشعرية.

ويوضح الفارابي هذا التصنيف من خلال عقده لمقارنة يقيس من خلالها الموسيقى بفن التصوير، حيث يرى أن النوع الأول من الموسيقى وهو غالبا الموسيقى الخالصة الخالية من الكلام يشبه فن الديكور والزخرفة، فهو مريح للعين ولا يثير في النفس شيئ أخر، أما النوع الثاني فهو الذي يبعث في النفس الاحساس بالطبيعة، وفي البشر الاحساس بعواطفهم وأفكاراهم، وهي مثل النوع الثالث من الموسيقى المصاحبة للكلام . هذه الموسيقى تمثل للانسان ما كان يمثله الصنم بالنسبة للقدماء، حيث يثير في نفوسهم الاحساس بوجود الألهة وبقدرها وسموها وجبروتها .

لكن الفارابي يعترف بالموسيقى الخالصة قشط من حال الإرتجال ومقدمات الأغاني والاجابة على المغني ومحاولة تقليد الكلمات التي يغنيها، ويمكن إستخدامها في تدريب الأذن على الاستماع، واليد على العزف . ولأجل ذلك يرى أن الأذن في استماعها للموسيقى الخالصة لا تشعر بالرضى فتكون دائما مدفوعة للبحث عما تفتقده الموسيقى الخالصة، وفي حالة ما تساعدنا

الموسيقى الخالصة على أن ندرك المفقود ونتخيله، وبذلك تكون قد وصلت إلى درجة الاتقان [25]ولعل هذا هو السبب الذي قاد الفارابي في اخر (كتاب الموسيقى الكبير) ليرجع إلى الموسيقى الخالصة نفس درجة الموسيقى الصوتية، أي أنها تستطيع أن تتجاوز حدود الأذن لتخاطب خيال وعقل الإنسان .

4 - التأثير السلبي للجمهور على الموسيقى :

لم يكن الفارابي راضيا عن الموسيقى التي عصرها خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري، ومثله في ذلك مثل ابن سيدنا وإخوان الصفا، لكنه تميز عنهم لكونه الوحيد الذي حاول تحليل ظاهرة التفاتهة الطاغية على فن الموسيقى في عهده، بحثا عن أسبابها الجوهرية، حيث باشر تحليله بالبحث عن وظيفة الموسيقى والشعر اللذان يستخدمان أحيانا لأسباب جادة وهادفة،وأحيانا أخرى للترفيه .

ويقصد الفارابي بالجاد هو كل ما يقودنا إلى تحقيق الهدف الإنساني الأكمل، وهذا الهدف عنده هو نفسه الهدف الأرسطي المتمثل في السعادة "السعادة القصوى".

لكن كيف تقودنا الموسيقى نحو تحقيق هذا الهدف الأسمى ؟

لا يمكن أن يكون هذا الهدف الأسمى هو اللعب، لأنه يقصد تكميل الراحة ، وهذه الأخيرة ليست هدفا في حد ذاتها، حيث يقول:

"وتبين هناك أن الغاية القصوى ليست هي اللعب، وأن أصناف اللعب إنما يقصد بها تكميل الراحة، والراحة يقصد بها إسترداد ما ينبعث به الإنسان نحو أفعال الجد"[26].

كما يضيف الفارابي في تحليله لكيفية تحقيق السعادة القصوى عن طريق الموسيقى، الإشارة إلى الأفكار التي تروج في أذهان الجمهور الذين

عاصرهم ، والتي يراها سببا للتأثير السلبي على فن الموسيقى، والذي غير من قيمتها الجمالية، وأبعدها عن مدار الإنسانية كلها، إنما يطلب بها السعادة القصوى، وكان يلزم أن تكون ملذة دائمة أبدا، أو ملذة من غير أن يلحق الإنسان عنها أذى أو كلال أو تعب أصلا، وكانت بهذا بهذا الأمر أشبه الأشياء بالراحة"[27]

ومن هذا وقع الخطأ، إذ ظن الجمهور بأن الأشياء المتعبة شقاوات، والراحة وأصناف اللعب أنها السعادات إذا كانت أفعالها تحاكي حالة السعادة القصوى التي هي في الحقيقة سعادة، وذلك ما جعل أفعالهم بهذا المعنى لا جدوى لها في الإنسانية، وإبتعدت عن الأمور التي تقود إلى السعادة الحقيقية [28].

ويوضح الفارابي عواقب هذا الظن عند الجمهور بقوله: " ولذلك صاروا يطلبون من الأقاويل الشعرية ما شأنها أن تستعمل في اللعب، وكذلك من الألحان التي تقرن بها، فإنهم إنما يطلبون فيها يطلبون فيها ما كان شأنها أن تزين أو تحاكي أو تعين على على تنفيذ المقصود بهذا الصنف من الأقاويل الشعرية فقط"[29]

ويبدو من خلال هذا النص التأثير السلبي للجمهور على كل من الشعر واللحن، إذ أصبح يطلب من الشعر ما يستعمل في اللهو والترفيه، ومن الألحان ما هو عالق بذلك الشعر الهزيل.

ولأجل ذلك أصبحت جماليات الممارسة الفنية للموسيقى لا تتحدد بجمال اللحن، بل بطبيعة الشعر المرتبط بعبارات الغزل غاية في اللهو والترفيه. لكن الفارابي لم يقف عند حدود معرفة طبيعة الموسيقى كأفكار جمالية، وممارسة فنية، بل بعد تشخيصه لذلك الانحراف للموسيقى عن لإطارها الحقيقي الذي تنشده الفطرة الإنسانية، يشرع في رسم موقف أهل النظر،وحكم الشرائع من هذه الممارسة الفنية، حيث يقول:"فمال من له

على صنعة الألحان إلى صنعة أمثال هذه وحدها، فظن أنه أن المقصود بها كلها هذا المقصود، فكادت أن ترذل وتخس عند من مقصده التخييل منهم، وقاربت أن تأتي كثير من الشرائع ناهية عنها"[30].

فمن هذا النص نستنتج موقف رجال الدين أو الفقهاء من الموسيقى، والمتمثل في جعلها مكروهة لإرتباطها بذلك الإنحراف، لكن لماذا لم يكن موقف الفارابي كفيلسوف مسلم كموقف هؤلاء من الموسيقى ؟

إن السبب الأول يعود إلى تأثره بالفلاسفة اليونان خاصة منهم أفلاطون في فكرة المحاكاة في الفن، وأرسطو في ربط الموسيقى بالسعادة القصوى. والسبب الثاني يعزى إلى ميل الفارابي لسياسة الخلافة العباسية التي تميزت بالإنفتاح ونوع من الإباحية، وذلك لميل الحكام إلى القيم التي مصدرها العقل والمنفعة خاصة منها القيم الجمالية، والابتعاد عن القيم الجمالية الصادرة عن تعاليم الدين وقيمه الأخلاقية.

خلاصة : وما يمكن إستنتاجه من هذه النظرة الجمالية عند الفارابي، أنها محاولة لضبط مفهوم الجمال بإعتباره فكرة مطلقة من جهة إرتباطها بصفات الله وأسمائه الحسنى منها الكمال والجلال والعظمة، وإعتباره فكرة نسبية من جهة إرتباطها بتصور الإنسان للجمال ومحاولة محاكاته في ممارساته الفنية، وأن الفكرة الأولى في المصدر الثانية، والذوق الجمالي هو علاقة بين الجمال النسبي والجمال المطلق أي أن العلاقة محاكاة النسبي المنطق ، وهذا ما يعكس تأثره بالفلسفة اليونانية . كما أن هذه النظرة الجمالية محاولة أيضا لتبيان الدور الإجتماعي الذي يلعبه الفن في تربية الوعي الجمالي عند الإنسان، وهذا ما جسده إبداعه في الموسيقى كعلم وفن.

لكن رغم ذلك تبقى هذه النطرة الفلسفية للفارابي محاولة لإثارة مفاهيم جمالية، وضبط معاييرها الأخلاقية، وكذا ضبط مبادئ الموسيقى النظرية وقواعد ممارستها كفن جميل وهادف. ذ

الهوامش :

[1]-أبو نصر الفارابي – المدينة القاضلة و مختارات من كتاب الملة – موفم للنشر – الطبعة الثانية : 1990 – ص:19، 20

[2]- عبد الرحمان مرحبا – من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر – الطبعة الثالثة : 1983 – ص:413.

[3]- المصدر السابق ص: 18

[4]- المصدر نفسه ص : 20

[5]-نفس المصدر و الصفحة

[6]- عبد الرحمان مرحبا – من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية –ص :413

[7]- أبو نصر الفارابي – المدينة الفاضلة – ص : 20

[8]- نفس المصدر و الصفحة

[9]- نفس المصدر و الصفحة

[10]- المصدر نفسه –ص:18

[11]-إ.نوكس –النظريات الجمالية –ص: 18

[12]-المصدر السابق – ص:21.

[13]-- أبو نصر الفارابي – رسالة التنبيه على سبيل السعادة –تحقيق :سفيان خليفات – منشورات الجانعة الأردنية –عمان –الطبعة الأولى :1987 – ص :187.

[14]- أبو نصر الفارابي – كتاب تحصيل السعادة – تحقيق : جعفر أل ياسين – دار الأندلس – بيروت – الطبعة الأولى: 1981 –ص: 69.

[15]-المصدر نفسه – ص :74

[16]-المصدر نفسه، و الصفحة .

[17] -Manuel , l'histoire de la musique . Tome 1. La Pléiade – paris : 1960 p :451.

[18]-أبو نصر الفارابي – كتاب الموسيقى الكبير – تحقيق : غطاس عبد الملك خشبة – دار الكتاب العربي – القاهرة – دون تاريخ – ص : 1184

[19]-المصدر نفسه ص:23.

[20]-المصدر نقسه –ص:49.

[21]-أنور مغيث- الموسيقى عند فلسفة الإسلام- مجلة الحوار- العدد: 08- السنة الثانية: 1987 – يبروت – ص: 115.

[22]- المصدر السابق – ص :69.

[23]- المرجع السابق-ص:116.

[24]- المرجع نفسه و الصفحة.

[25]-المرجع نفسه –ص: 117.

[26]-أبو نصر الفارابي – كتاب الموسيقى الكبير – ص:1184-1185

[27]-المصدر نفسه ص:1186.

[28]-أنور مغيث – الموسيقى عند فلاسفة الإسلام- ص:118.

[29]- المصدر السابق – ص : 1184.

[30]- المصدر نفسه – ص: 1187.